الدين وعلم النفس الحديث

قد اجتاز علم الاديان ثلاثة اطوار هى :

(١) الطور الخرافى اللاهوتى

(٢) الطور اللاهوتى الفلسفى

(٣) طور مقابلة الاديان

واليوم يجتاز طورا رابعا هو طور التحليل النفسى او علم النفس الحديث .

* * *

ما هى العناصر التى تتكون منها نفسية المتدين ؟ ما هو نوع العلاقة بين الدين والاخلاق ؟ وبين الدين والغريزة الجنسية ؟ تحليل الخطيئة والتوبة . تحليل الباعث على الاعتقاد بالخلود . هذا نموذج من المسائل التى يبحث فيها علم النفس الحديث .

نفسية المتدين

يقول بعض علماء اللاهوت الحديث ان التدين هو مجموعة بواعث اخلاقية ذات غرض اخلاقى وان الانسان اذا كان مثله الا على اخلاقيا فهو متدين لان الدين والاخلاق شىء واحد . فالعناصر التي تتكون منها نفسية المتدين — عندهم — هى عناصر اخلاقية محضة . ولكن علم النفس الحديث الذى يعتمد على الحقائق المشاهدة لا يقبل هذا الزعم ويثبت ان البواعث الاخلاقية اذا امتزجت بالدين فقدت كل « اخلاقيتها » . الاحسان يصير الي طمع فى الثواب والواجب يتحول الى خوف من العقاب . وضبط النفس لا يفهم منه الا ترك بعض الملاذ فى هذا العالم للحصول على ملاذ اعظم منها فى عالم آخر . اذا غلب المتدين نفسه يقول « انى اخاف الله » ، واذا غلبته نفسه يقول « ان الله غفور رحيم » ، اذا أخذ حظه من اللذات او صار غير قادر عليهما قال :

اعتزل ذكر الأغانى والغزل وقل الفصل وجانب من هزل

واذا اشتد به التحرق انشد :

فكثر ما استطعت من الخطايا فانك بالغ ربا غفورا

اذا تعفف المتدين فهو انما يفعل ذلك لانه « لا يريد ان يشترى لذة ساعة بعذاب

الف سنة، اما غير المتدين فاذا تعفف فلأنه يشعر مع القائل .

رب بيضاء فرعها يتثنى ٭ قد دعتنى لوصلها فأبيت
لم يكن بى تحرج غير أنى ٭ كنت خدنا لبعلها فاستحيت

قد يكون صاحب البيتين متدينا ولكن سلوكه فى هذه الظروف لم يكن ذا باعث دينى . « لم يكن به تحرج » — خوف عقاب او طمع فى ثواب . كان الباعث اخلاقيا محضا يختلف كل الاختلاف عن الباعث الدينى .

* * *

اذا كانت العناصر التى تتكون منها نفسية المتدين غير اخلاقية فماذا تكون اذا ؟

يقول Freud. ان للدين صلة متينة بالغريزة الجنسية انظر

Introductory Lectures on Psycho-Analysis Page 372.

ويقول W. S. Swisher. انه من الممكن جدا ان الغريزة الجنسية هى الاساس الذى أقيم عليه بناء الدين . انظر

Religion and the New Psychology Page 17.

ونحن نعتقد ان الملاحظات الآتية تؤيد تلك النظريات

(١) ان كتب الاناشيد التى تستعمل اليوم فى الكنائس المسيحية تحتوى على الشىء الكثير مما يصح ان يدعى قصائد غرامية فانك تجد فيها مطالع مثل :

يسوع يا حبيب قلبى (او نفسى)
دعنى ألقى بنفسى بين ذراعيك (او على صدرك)

ومثل :

أحبك يا يسوعى (الياء ضمير جر !)
وأعلم أنك لى

وفى الكتاب المقدس نفسه نقرأ :

نشيد الأنشاد الذى لسليمان
ليقبلنى بقبلات فمه لأن حبك أطيب من الخمر

ومن هذا القبيل أكثر كتب التصوف فانك لاتدرى وأنت تقرأ أشعار ابن العربى وابن الفارض أهى اناشيد دينية أم قصائد غرامية !

(٢) ان العبادة من الأشياء التي تشير إلى تلك العلاقة أيضاً . المتدين « يعبد الله » وإذا أحب امرأة يقول لها « إني أعبدك » والخضوع والخشوع من لوازم العبادة كما هي من لوازم الحب ، فاذا صلى المتدين يقول « ونخضع لك ونخنع » واذا أحب ينشد « لي لذة في ذلتي وخضوعي

(٣) حب التضحية والاستشهاد والتلذذ بالألم من العواطف التي لها مظر واحد في كل من الدين والحب، يجد المؤمن لذة في عذابه « في سبيل الله » كما يجد المحب لذة في السهر والبكاء — كلاهما سعيد لأنه حسب اعتقاده لذلك العذاب وكلاهما يجد العزاء في كونه انما يفعل ذلك « لأجل المحبوب» وكلاهما يطلب زيادة الألم لعله ينال الرضى — رضى الله أو رضى المحبوب .

(٤) ان المتدين إذا تحرر قليلا من قيود الخوف التقليدي وانساه العبث حدود الحلال والحرام نراه يمزج الدين بالحب بسهولة مدهشة . وليس أبو نواس وحده هو الذي يستعمل القرآن في الخمر بل هي طريقة كل ماجن متدين . كلهم يرى تلك الصلة فلا يستطيع إنكارها . . . . . على اننا لسنا في حاجة للرجوع إلى التاريخ فان كل من اختلط برجال الدين وطلبة المعاهد الدينية في أي بلاد يستطيع ان يؤكد لك ان أكثريجونه ولاه ذو صبغة دينية وان عبثهم كثيراً ما يكون في الأوساط الدينية وفي محلات العبادة وان بعض الكتب الدينية تقرأ لا لشيء سوى إثارة الغريزة الجنسية

طاهر خيري

(يتبع)

أطلب من دار العصور للطبع والنشر

ومن جميع المكاتب المعروفة

نزعة الفكر الأوروبي